# مراعاة المقام ومقتضى الحال عند البقاعي في تفسيره نظم الدرر في تناسب الآيات والسور أنموذجاً"

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الخامس

**( مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)**

**المنعقد في ١٨ مارس ٢٠٢٣م**

**بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية**

**جامعة الأزهر**


إعداد الدكتورة

**أسماء بنت محمد عبد الله السلومي**

**استاذ مساعد في قسم الثقافة الإسلامية ، كلية الشريعة والانظمة**

**جامعة الطايف، المملكة العربية السعودية**

# مراعاة المقام ومقتضى الحال
# عند البقاعي في تفسيره نظم الدرر في تناسب الآيات والسور أنموذجاً"

أسماء بنت محمد عبد الله السلومي
قسم الثقافة الإسلامية ، كلية الشريعة والانظمة، جامعة الطايف، المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: asmaalsallomi@gemail.com

**الملخص:**

غالبا ما تكون الدراسات الحديثة موافقة للدراسات القديمة مع إضافات وتحسينات في بعض المصطلحات، فمصطلحات التداولية والقصدية، مصطلحات وأسماء حديثة لطرق قديمة في التفكير كانت تسمى مراعاة المقام، ولهذا جال في خاطري أن أبحث عن ذلك عند المفسرين" بيد أني وجدت البقاعي خير تطبيق لهذه الدراسة، فجاء العنوان: مراعاة المقام ومقتضى الحال عند البقاعي في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور أنموذجاً، وتبرز مشكلة البحث: في مساهمة البقاعي الكشف عن هذه التداولية في تفسير النص القرآني، ومدى مراعاة النص القرآني حال المخاطبين وأحوالهم من وجهة نظر البقاعي وهل خرج النص القرآني على خلاف مقتضى الظاهر عند البقاعي؟ مع بيان جهد البقاعي، وإسهاماته في مجال اللسانيات التداولية بوصفه أحدَ أبرز مفسري القرآن الكريم، والكشف عن وجوه الأعجاز القرآني في معرفة مراد النص القرآني، ومن ثم تدور فكرة البحث حول التداولية ومدى إدراك القدماء لمفهومها في شروحهم وتفسيرهم، من خلال النماذج التطبيقية في مطابقة الكلام لمقتضى الحال وصوره عند البقاعي من جهة ومخالفة الكلام لمقتضى الظاهر من جهة أخرى، قاصداً من وراء ذلك بيان قصدية النص القرآني من حيث كلماته وآياته وسوره، من خلال ما أوتي البقاعي من معرفة لغوية بعيدة عن التعقيد والفلسفة، ومن خلال معرفتي تعد هذه الدراسة جديدة في بابها من ناحية دراسة اللسانيات، بسبب أن أكثر الباحثين يدرسون مثل هذه القضايا في أبواب البلاغة من دون عرضها على اللسانيات.

**الكلمات المفتاحية:** مراعاة المقام، مقتضى الحال، المفسرون، البقاعي.

# According to Al- Bakaee in its interpretation of the cyclic systems in proportion to the Ayat and Swar as a model"

**Asma bint Mohamed Abdullah Al-Salomi**
**Department of Islamic Culture, Faculty of Sharia and Regulations- Taif University Kingdom of Saudi Arabia**
**E-mail:** asmaalsallomi@gemail.com

**Abstract**

Recent studies are often similar to old studies adding improvements to some terminology. Deliberative and intentional terms are modern terms and names for old ways of thinking called situation consideration. As a result, I have been motivated to look for this according to interpreters. "But I found that the best application of this study is the study of Al- Bagaee. Taking into account the situation and matching the words to situation according to Al- Baqaee in his book Nozom Al- Durar to fit the verses and fence as a model. The problem of research highlights: In Baqaee contribution, disclosure of this deliberation in the interpretation of the Quranic text, the extent to which the Quranic text takes into account the state and conditions of the addressees from the perspective of Baqaee, and has the Quranic text come out contrary to the apparent requirement at Baqa'i? With a statement of Al- Baqaee's effort and contributions to the field of deliberative linguistics as one of the most prominent interpreters of the Holy Quran, and disclosure of the faces of Quranic great ability to show

the Quranic purpose. Then the idea of research is about deliberation and how much ancient people perceive its concept in their explanations and interpretations. Through applied models in matching speech to the situation from one hand and not being matched externally on the other hand. The text is in terms of its words.

**Keywords**: Taking into account the situation, matching of words, interpreters- and Al- Baqaee.

## المقدمة:

تعد التداولية من قضايا علم اللغة الحديث والتي شغلت الباحثين حديثاً، ويهدف هذا العلم إلى حلّ الكثير من القضايا المتعلقة بتحليل النص، فقد احتلت التداولية مكانة مرموقة في عالم الدارسات اللغوية؛ وانفتحت أمامها آفاق واسعة من البحث العلمي اللغوي في مجال تحليل النص ككل، من حيث البناء الداخلي والخارجي على حد سواء.

وفي العصر الحديث أدى ظهور هذه القضية إلى تطور في مجال مناقشة النص، إلى حد العناية بمحاور إنتاج النص أو الخطاب، فاستوفى عناصر الموقف الخطابي وكل ما يؤثر فيه من سياق الحال أو المقام، وحال المتكلم والمخاطب، وثقافة كل منهما، وعلاقة كل منهما بالآخر وبالخطاب، عنايةً كبيرةً؛ فلا يتحقق التواصل بين المتكلم والمخاطب، أو بين القارئ والكاتب بنطق جمل وعبارات أو قراءتها معزولةً عن سياقها، بل إن ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك، إنما يكون بحسب مصادقة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال.

فعناية العلماء كانت قديمة بهذا الفن وحديثة أيضا ولكن بظهور مصطلح ومفهوم جديد كالتداولية والقصدية ومن ثم رأيت أن أقف مع العلامة البقاعي في تفسيره نظم الدرر، لأستكشف رؤية القدماء في مراعاة المقام ، ذلك أن أعظم نص معجز هو القرآن الكريم، وأردت أن أكشف عن مراعاة المقام وأبعاده في القرآن الكريم، كما يراها الإمام البقاعي، وذلك في البحث الموسوم بـ **(مراعاة المقام ومقتضى الحال عند "البقاعي في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور أنموذجاً")**.

**منهج البحث:** يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي المتناسب مع طبيعة الدراسة النصية، مع الرجوع إلى كتاب نظم الدرر للبقاعي، والمصادر الأصيلة في البحث والدراسة.

**إشكالية البحث:** نظراً للأهمية البالغة التي لحظتها الدراسات اللسانية الحديثة من وجوب مراعاة التداولية في بناء النصوص وعلاقتها بمراعاة حال المخاطب؛ فقد رأيت أن أبحث من خلال هذا البحث عن مدى إدراك البقاعي في تفسيره "نظم الدرر" لهذه القضية.

وتبحث الدراسة عن إجابة لبعض الأسئلة منها:

ما المقصود بالتداولية وأبعادها وأركانها وشروطها؟

ما مدى مساهمة البقاعي في الكشف عن هذه التداولية في تفسير النص القرآني المعجز؟

هل راعي النص القرآني حال المخاطبين من وجهة نظر البقاعي؟

هل خرج النص القرآني على خلاف مقتضى الظاهر فيه عند البقاعي؟

**أهمية البحث:** بيان جهد البقاعي، وإسهاماته في مجال اللسانيات التداولية بوصفه أحدَ أبرز مفسري القرآن الكريم، والكشف عن وجوه الأعجاز القرآني في معرفة مراد النص القرآني، وهي ما يسميها المحْدَثون القصدية، وكيف وافق هذا مراعاة حال المتلقي للنص القرآني، وهي ما يسميها المحدثون المقبولية، وذلك على أساس أن القصدية والمقبولية هما من أهم متطلبات تحقيق تداولية النص، ولا غنى عنهما في تشكليه وفهمه.

**الدراسات السابقة:**

١. **ظاهرة خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في القصص القرآني دراسة بلاغية**، للباحثة سهير مدحت حمدان، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، رسالة ماجستير ٢٠٠٣م، وقد هدفت الباحثة إلى إثبات ما تفرد به النص القرآني من صور ظاهرة في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في جوانبه البلاغية، وتناولت الدراسة جميع أنواع خلاف مقتضى الظاهر، وخلصت إلى الكشف عن بعض الأسرار الفنية للظاهرة من الناحية البلاغية، وأثبتت أن الالتفات قد أخذ حيزاً كبيراً في القصص لأنه من أجلّ علوم البلاغة.

٢. **التداولية في النحو العربي**، للدكتور فيصل مفتن كاظم، وهو بحث منشور في مجلة أبحاث ميسان، المجلد الثاني، العدد الرابع، ٢٠٠٦،

وفيه تناول المؤلف معنى التداولية، وتقسيماتها عند المحدثين، وبيّن أصول المجال التداولي في النحو العربي، وكذلك الصحة النحوية في المفهوم التداولي، وخلص إلى أن إصرار النحويين على بيان المعنى في جملة واضحة الدلالة بعيدة عن اللبس يعد صورة من صور التداولية في النحو العربي.

٣. **قضايا التداولية في التراث العربي: أفعال الكلام أنموذجاً**، للمؤلفين: زكور نزيهة، ودكتور غليوس صالح، وهو بحث منشور في مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد الخامس، ٢٠١٨، وتناول فيه الباحثان معنى التداولية ومعنى أفعال الكلام، وتباين الكلام بين الخبر والإنشاء، وخلص الباحثان إلى أن أسلوب التأكيد في أفعال الكلام هو معنى أسلوبي وغرض تداولي، يجب أن يُراعي فيه حال السامع والمتلقي.

**خطة البحث:** يقع البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة. ففي المقدمة أهمية الموضوع ومنهج البحث وإشكاليته وخطته، وفي التمهيد توطئة للبحث بترجمة للبقاعي، وبين يدي الدراسة، والقصد البلاغي من النص القرآني، والمبحث الأول: التداولية: مفهومها وأركانها ومعاييرها، والمبحث الثاني: مطابقة الكلام لمقتضى الحال وصوره عند البقاعي، والمبحث الثالث: مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر عند البقاعي، ثم الخاتمة وفيها نتائج الدراسة، ومصادر البحث ومراجعه.

# التمهيد

**الإمام البقاعي:**

هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط الدمشقي، أبو الحسن، المعروف ببرهان الدين البقاعي.[١] ولد بوادي البقاع سنة ٨٠٩، في أسرة كبيرة، لأبوين فقيرين، يعيشان عيشة الكفاف، وبعد أن حفظ القرآن، وتعلم مبادئ العلم الأساسية، ثم نزلت بأسرته كارثة قتل فيها والده وعمه، فرحل مع أمه إلى دمشق، حيث واصل الطلب، وتنقل بينها وبين القدس الشريفة، قبل أن يستقر في القاهرة، وفيها التقى بعلمائها، وبخاصة الحافظ ابن حجر العسقلاني، الذي لازمه وانتفع به غاية الانتفاع، وقد أعجب به ابن حجر بدوره، فأثنى عليه كثيرًا، وعده من كبار أصحابه، ووصفه بالعلامة، وأثنى على مؤلفاته. [٢]

من مؤلفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ومصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور ، والأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل، والقول المألوف في الرد على منكر المعروف، وله ديوان شعر سماه أشعار الواعي بأشعار البقاعي، ورسالة ليس في الإمكان أبدع مما كان، رد فيها على بعض الفلاسفة القائلين بالوحدة المطلقة. [٣]

**بين يدي الدراسة:**

لكل منشئ نص غاية يسعى لتحقيقها من هذا النص، فلا يوجد نص بدون مقصد؛ ولا يتكلم المتكلم مع غيره من دون قصد[٤]، فالقصدية تعني كل السبل

---

(١) حسين، الساعاتي، (٢٠٠٠) إمتاَعُ الفُضَلاء بتَراجِم القرّاء فِيما بَعدَ القَرن الثامِن الهِجري، تقديم محمَّد تميم الزّعبي، الطبعة الأولى ، بيروت، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع (٧٤/٢). كحالة، عمر، (د. ت)، معجم المؤلفين، طبعة أولى، بيروت، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي بيروت، (٧١/١).

(٢) أبو العلاء، عادل، (١٤٢٥)، مصابيح الدرر، طبعة أولى، الجامعة الإسلامية بالمدينة، السعودية، (٦٤).

(٣) كحالة، عمر، (د. ت)، معجم المؤلفين، طبعة أولى، بيروت، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي بيروت، (٧١/١).

(٤) نحلة، محمود، (٢٠٠٢)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، طبعة أولى، الإسكندرية، دار المعرفة الجديدة، (٨٩).

التي يتخذها منتج النصوص من أجل متابعة مقصد النص وتحقيقه[١]، وهذا يعني أن القصدية وسيلة من وسائل أخرى عديدة يستعملها منشئ النص من أجل تحقيق مرادِه، مما يؤكد أن عنصري السبك والحبك، يوجههما باستمرار قصدُ المتكلم لهدف محدد، وهو التأثير في متلق بعينه في ظروف معينة[٢]، حتى إن دي بوجراند[٣] يرى أن احتواء النص على خلل في سبكه أو حبكه لا يؤدي إلى فقدان النص للمقبولية إذا كان الخلل الحادث يتجه إلى قصد معين، ومعنى هذا أن للقصد تأثيراً في بنية النص وأسلوبه؛ لذلك فإن المنشئَ يبني نصه بناءً معينًا، ويختار لذلك وسائل لغوية ملائمة بما يضمن تحقيق مراده.

وكأن دي بوجراند يرى أن القصدية في أي نص تتحقق من المتكلم، سواء تحققت بشكل كامل أو ضعفت في بعض الأحيان، وسواء أكان النص معها مسبوكًا محبوكًا أم لا يتوافر فيه عنصرا السبكِ والحبك بشكل كامل؛ فهي معيار مستقل عن السبك والحبك، وكان ميخائيل باختين[٤] يرى أن النص يتحدد بعاملين يجعلان منه نصّاً: النية أو العزم، وتنفيذ هذه النية، وهما يتفاعلان بشكل ديناميكي[٥].

(١) فرج، أحمد، (٢٠٠٧)، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، طبعة أولى، القاهرة، مكتبة الآداب، (٢٣١).

(٢) شبل، عزه، (٢٠٠٧)، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، طبعة أولى، القاهرة، طبعة الآداب، (٢٧).

(٣) روبرت آلان دي بوجراند لغوي نصي أمريكي، ومحلل للخطاب النصي، وأحد الشخصيات البارزة في علم اللسانيات واللغة، والسيميائية، وعلم النص، ونشر المقدمة الأساسية في لغويات النص في عام ١٩٨١م.

(٤) فيلسوف ولغوي أدبي روسي، درس فقه اللغة وتخرج عام ١٩١٨، كتب في نظرية الأدب، واللغة، والسيميائية، والنقد، وعلم النص، وله نظرية خاصة في أن النص سواء أكان مكتوباً أم شفهياً؛ فهو أساس جميع حقول دراسته (اللسانيات، وفقه اللغة، والدراسات الأدبية).

(٥) شبل، عزة، علم لغة النص، (٢٨).

إن مفهوم القصد يمثل جزءاً أساسياً من تداولية الخطاب، سواء أكان هذا في الفكر العربي التراثي أم في الفكر اللغوي الحديث(١).

**القصد البلاغي في النص القرآني:**

جاء القصد في البلاغة العربية على ألفاظٍ كثيرة، منها: الغرض، والفائدة، والمراد، والحاجة، والمقصد(٢)، بل رأى بعض الباحثين أن لفظ (البلاغة) يعني (المقصد)، وبذلك يكون (علم البلاغة) عندهم هو (علم المقاصد)(٣)، هذا رأي بعضهم.

ويوضح عبد القاهر أهمية القصد بقوله: "وكان مما يُعْلم ببدائه المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً؛ ليعرف السامع غرضَ المتكلم ومقصوده"، وكذلك أكد أهمية القصد وعلاقته بالألفاظ والمعاني بقوله: "وأمر (النظم)، في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكَلِم، وأنك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"(٤)، وهنا يرى عبد القاهر أنه لا بد من معرفة غرض المتكلم وقصده؛ ومن ثم يتم تحديد وظيفة الألفاظ في النطق.

ولعل جوهر القصد ظهر في دراسة المفسرين وجهدهم في الكتب عن المعنى المراد من النص القرآني، بيد أن مصطلحات القدماء تختلف فقط عن المحدثين، ولكنها تتفق في المعنى المقصود، يضاف إلى ذلك أن النص القرآني يحظى بصفة إضافية خاصة، وهي أنه نص معجز حاول الكثيرون وسيحاول الكثيرون الكشف عن وجوه إعجازه.

---

(١) قاسم، سيزا، (١٩٩٥)، القارئ والنص، مجلة عالم الفكر، (العدد ٣،٤) (المجلد ٢٣)، (٢٧٧).

(٢) مبدر، عقيل، (٢٠١٢)، أصول المعايير النصيه في التراث عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة العراق، (١١).

(٣) ناصف، مصطفى، (١٩٩٥)، اللغة والتفسير والتواصل، طبعة أولى، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (١١).

(٤) الجرجاني، عبد القاهر، (د. ت) دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة خامسة، القاهرة، مكتبة الخانجي، (٥٣٠).

## المبحث الأول: التداولية مفهومها وأركانها ومعاييرها.

لقد بحث علماء اللسانيات كثيراً في مفهوم النص وفي الآليات والمعايير التي من شأنها إثبات وحدة النص باعتباره شبكةً من العلاقات والعناصر اللغوية وغير اللغوية، ولهذا، فقد كانت دراستهم عميقة، حيث إنهم لم يقتصروا على المعايير الداخلية فحسب؛ وإنما تعدوها إلى معايير خارجية مرتبطة أساساً بالسياق والمتكلم والمخاطب والدور الذي تؤديه في تحقيق التماسك النصي، وهذا في إطار التداولية التي تبحث في البنية النصية وظروف إنتاجها ودلالتها التي تضمن للنص استقلاليته.

- **أولاً: مفهوم المنهج التداولي:**

تهدف التداولية إلى دراسة العلاقة الرابطة بين القارئ والنص والمنتج، وتعرف بأنها: دراسة الدلالة التواصلية، أو معنى المتكلم أي غرض المتكلم من الكلام، في كيفية قدرته على إفهام المخاطب بدرجة تتجاوز ما قاله المتكلم.

ومن خلال هذا التعريف يمكننا القول: إن التركيز على معنى المتكلم يعد ضرورياً في عملية التواصل التي يسعى المرسل من خلالها إلى إيصال معاني محددة تحملها النصوص إلى المتلقي، وتعرف أيضاً بأنها "كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب أو النص بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية في ضوء عناصر السياق".(١)

ومعنى هذا: أن المرسل، من خلال علمه ودرايته بمختلف المعايير والمبادئ الواجب اتباعها أثناء إنتاجه للنصوص، وكذا اعتماده على المستويات اللغوية وتركيزه على السياق، يكون بهذا قد استطاع التعبير عما يود إيصاله للمتلقي ويحقق هدفه.

وحتى لا يحدث اللبس تجدر الإشارة إلى أن العلماء ذكروا أن للتداولية تعلق باللغة ولها تعلق بالمنطق والفلسفة؛ فذهبوا إلي أنها اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير بدأت على يد سقراط، وتبعه اللاحقون، ومن فهي تعني دراسة المعنى

(١) الشهري، ابن ظاهر، (٢٠٠٤)، استراتيجيات الخطاب، الطبعة الأولى، ليبيا، دار الكتاب، (٢٢).

التواصلي، أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز ما قاله(١).

- **ثانياً: أهمية المنهج التداولي:**

للتداولية أهمية كبيرة في دراسة النصوص وتحليلها والوقوف عند أهم المعايير والمبادئ التي تركز عليها هذه النصوص وتعتمدها للكشف عن نصيتها، وقد أكد المنهج التداولي على ضرورة ارتباط المرسل بالسياق الخارجي، حيث إنه ينتج نصه أو يجعله يكون ملائمًا لمقتضى هذا السياق، حتى يتمكن هذا الأخير من التوصل إلى تحقيق هدفه، ومعنى هذا أن مراعاة السياق أمر ضروي أثناء عملية إنتاج النصوص، ولا يتم حصول عملية الفهم والإفهام إلا من خلال اعتماد السياق، وفقا للمنهج الذي يتيح للمرسل التلفظ بخطابه بتوظيف مستويات اللغة، والدرس التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل لا بمعزل عنه(٢).

واستناداً إلى هذا نقول: إن وظائف اللغة لا تدرس ولا تؤدى إلا إذا كانت وفق ما يقتضيه الجانب التواصلي. وعليه، فالتداولية تؤكد ضرورة مراعاة السياق وأثره على نظام الخطاب أو النص المنجز.

- **ثالثاً: معايير التداولية:**

وقد تمثلت هذه المعايير في الأمور الآتية:

**أولاً: القصدية:** وهي عامل القصد للكلام، أو ما يعرف حديثاً بالقصدية أو المقصدية وهي من أبرز العوامل غير اللغوية التي تدخل في إنتاج النصوص وفهمها، وهي من أهم المعايير النصية التي حددها (دي بوجرند و دريسلر) والتي تسهم في تحقيق التماسك النصي والمساهمة في عملية الإفهام والإبلاغ، وتعرف القصدية بأنها: "جميع الطرق التي يتخذها منتجو النصوص في استغلال النصوص من أجل متابعة مقاصدهم وتحقيقها"(٣).

---

(١) الشهري، (٢٠٠٤)، استراتيجيات الخطاب، (٢٢).
(٢) الشهري، (٢٠٠٤)، استراتيجيات الخطاب، (٢٣).
(٣) البطاشي، ياسر، (د. ت)، الترابط النصي، (٨٩).

وتأكيداً لهذا الطرح، يرى تمام حسان "أن القصد يتصل بنية منشئ النص، أن ينشئ نصًا ذا سبك وتعليق ليصل إلى ما خطط الوصول إليه، وينبغي على منتجي النص أن يكونوا قادرين على توقع استجابات المستقبلين له لحظة استقباله"(١)، ومعنى هذا أن القصدية وسيلة للوصول إلى المراد من استعمال النصوص وما تحمله من مواد معرفية، والقصد ليدس بنية عشوائية، وإنما هو عمل مقصود به فيجب أن يكون منسقاً ومترابطاً من أجل تحقيق هدف معين، وبمعنى آخر هو عمل مخطط، له غاية يود بلوغها.

الجدير بالذكر هنا أن المتأمل في هذه القضايا المتعلقة بالقصدية في النص، لا يملك إلا أن يقف أمام نص القرآن الكريم ويتأمل في كيفية خروج هذا النص المعجز، وكيف استطاع في حكمة وبلاغة إيصال آياته وأحكامه بتلك الصور البيانية الكاملة مع كامل القصدية التي هي أهم مقومات المعايير النصية.

- **أهمية القصدية ودورها في السياق:**

تعد القصدية من أهم المقومات الأساسية للنص ومن أبرز المبادئ والمؤشرات التي تدخل في إنتاج النصوص وتؤدي إلى بلورة المعنى حسب قصد المتكلم، حيث إنه لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل، فللقصدية دور فعال في تحديد معاني هذه العلامات، فالخطاب أو نص الكلام هو علامة تنطوي عليها أغراض المتكلم، وهذا ما يجعله ذا معنى، ويتعدد بتعدد السياقات.

ويساعد القصد أيضاً إلى جانب هذا على تصنيف هذه العلامات فهو معيار لفهم النصوص وإنتاجها؛ إذ كلٌّ ذلك فعل قولي أو نتاج لساني.

**ثانياً: المقامية،** ويتعلق هذا العنصر بالسياق الثقافي والاجتماعي للنص، ويعني "أن يكون النص موجهاً للتلاؤم مع حالة أو مقام معين، بغرض كشفه أو

(١) حسان، تمام حسان، (٢٠٠٧)، اجتهادات لغوية، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب (٣٧٩).

تغييره، وقد يكون الموقف الذي يحمله النص مباشراً أو غير مباشر ويفترض في هذا العنصر وجود مرسل و مرسل إليه(١).

ومعنى هذا أن النص ذو ارتباط شديد بالموقف والسياق الذي يكون فيه، باعتبار أن السياق أحد المقومات الأساسية في انسجام النص، وخاصة من الناحية الدلالية، حيث إنه يعين ويحدد المعنى. وفعالية النصوص لا تظهر إلا من خلال مجموعة من العوامل السياقية والتاريخية والنفسية والاجتماعية، بما اصطلح عليه قديماً بالمقام، وحديثاً بسياق النص(٢)، ونستنتج من خلال هذا أنه لا يمكن فهم النص بمعزل عن سياقاته المختلفة، وما يحيط به من ظروف وملابسات. وتأكيدًا لهذا يقول "دي بوجرند": إن نصية الخطاب لا تكتمل ولا تستقيم إلا إذا راعى صاحبه الظروف المحيطة، لذا ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه. وهذه البنية السابقة تسمى سياق الموقف والمقام، وهو من الوسائل التي تجعل النص يبدو أكثر تماسكاً. والنص ينتج من مقام معين، وله رسالة وهدف يبينهما المقام الذي أنتج فيه النص، إذ لابد من رعاية الموقف الذي أنشئ فيه النص من أجل فهمه وتفسيره تفسيراً إبداعياً لما قصده منتج النص(٣).

**ثالثاً: المقبولية:** وتتعلق بمدى استجابة القارئ للنص وقبوله له، وهي تعني حكم الفرد المتكلم على ما يسمع من أقوال. وتخضع المقبولية لعوامل متعددة تقع في مستوى الإنجاز، منها ما هو لغوي ومنها ما هو اجتماعي أو ثقافي أو نفسي، وهذا يعني أن مقبولية جملة ما ترتبط أساساً بثقافة المتكلم واستعداده النفسي ومستواه اللغوي وظروف التواصل(٤). ومعنى هذا أن المقبولية تكون

---

(١) مسعود، جبران، (٢٠١٢)، الرائد، طبعة ثالثة، بيروت، دار العلوم للملايين، مادة مقياس (٨٤٠).

(٢) إسماعيل، هناء محمود، (٢٠١٢)، النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية (٢٢٧).

(٣) نعمية، أنطوان، (٢٠٠٠)، معجم المنجد، الطبعة الأولى، بيروت، دار المشرق، (١١٢٣).

(٤) حسان، تمام حسان، (٢٠٠٧)، اجتهادات لغوية، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب (١٦٧).

رهينة مجموعة من العوامل التي تحدد درجاتها وتتحكم فيها، ويتمثل القبول برغبة المستقبل في أن يكون النص جيد السبك والتعليق به، ويميل هذا الموقف إلى استجابة لبعض العوامل، مثل نوع النص والموقف الاجتماعي أو الثقافي والمرغبات في بلوغ الأغراض(١)، ويتضمن القبولُ موقفَ مستقبلِ النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث نص ذي سبك والتحام(٢). كما تعد المقبولية خاصية مهمة تساعد على تفادي مشكلة عدم القدرة على تقعيد اللغة يتجاوزون بها القانون اللغوي المتعارف عليه حتى أثناء الإجراء الاتصالي، وهذا ما يمكِّن المتلقي من فهم قصد المتكلم(٣)، وبهذا، فالمقبولية ترتكز بالدرجة الأولى على المتلقي، ومدى قدرته على تأويل وفهم مقاصد المتكلم.

الجدير بالذكر هنا أن مصطلحات التداولية والقصدية والمقامية والمقبولية من اطلاقات علماء الغرب ومن علي شاكلتهم في النمط الفكري، ذلك أننا لا نجد لها وجوداً في التراث العربي بهذه الألفاظ، وفي العموم فهي مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية، تعني باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية، والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية أثناء الاستعمال التخاطبي(٤).

**ومن أمثلة التداولية وصورها في نظم الدرر:**

التعبير بصيغة الخبر لإيصال مضمون كلام خاص للمستمع الذي يدرك غرض الكلام من خلاله، ومن خلال السياق اللغوي وطريقة نظم الكلام.

(١) دي بوجراند، (١٩٩٨) النص والخطاب والإجراء، تحقيق تمام حسان، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، (١٦٧).

(٢) إسماعيل، هناء محمود، (٢٠١٢)، النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، (٢٤).

(٣) البطاشي، خليل بن ياسر، (د. ت)، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني، (٩٤).

(٤) بلانشيه، فليب، (٢٠٠٧)، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع (١٨).

وكذلك التعبير بالإنشاء الذي يختلف عن الخبر بأنه كلام لا يحتمل الصدق والكذب، بيد أنه له أغراضه التي يقصدها الحق جل وعلا في سياق النص القرآني.

والبقاعي قد فرق بين الصدق وبين الحق. فقال ناقلاً عن الإمام سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد: الحق الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك ويقابله الباطل، وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصة ويقابله الكذب، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع. وفي الصدق من جانب الحكم؛ فمعنى صدق الحكم مطابقته الواقع. ومعنى حقيته مطابقة الواقع إياه – انتهى، ثم يعقب على قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢] معنى الآية على هذا: إنا عالمون بالواقع من هذه الآيات فأتينا بعبارة يطابقها ذلك الواقع لا يزيد عنها ولا ينقص، فتلك العبارة ثابتة ثبات الواقع لا يتمكن منصف عالم من إنكارها ولا إنكار شيء منها، كما لا يتمكن من إنكار الواقع المعلوم وقوعه، ويكون الخبر عنها صدقاً لأنه مطابق لذلك الواقع بغير زيادة ولا نقص؛ والحاصل أن الحق يعتبر من جانب المخبر، فإنه يأتي بعبارة يساويها الواقع فتكون حقاً، وأن الصدق يعتبر من جانب السامع، فإنه ينظر إلى الخبر، فإن وجده مطابقاً للواقع قال: هذا صدق،...إلخ.[(١)]

وقال في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ **[يوسف: ١٠٠]**. قال: "أتى بمطابقة الواقع لتأويلها، وأما صدقه – صلى الله عليه وسلم – فهو بنسبة الخبر إلى الواقع ... وأما صدق الرؤيا فباعتبار أنه كان لها واقع طابقه تأويلها"[(٢)].

وندرك هنا من كلام البقاعي أن الواقع الخارجي للنص مهم جداً في تحديد معناه في التداولية والاعتماد على السياق في تحديد المعنى، وهو ما يستفاد من أن الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب من الكلام، وأن مدار الصدق والكذب مطابقة الواقع وعدمه.

---

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية (٣/ ٤٤٥).

(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (١/ ٤٨٤).

**ولهذا قسم البلاغيون الخبر إلى ثلاثة أنواع:**

١. **الخبر الابتدائي:** الأصل في الجملة الخبرية مثبتة كانت أو منفية أن يؤتى بها خالية من المؤكدات، حين لا يكون حال المخاطب يستدعي تأكيد الخبر له، وذلك إذا كان خالي الذهن، ليس في نفسه ضد مقدم الخبر عوامل شك أو إحجام عن قبول أخباره، ويحسن في ابتداء الإخبار بالخبر إيراده غير مقترن بأية مؤكدات[١]، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ **[الأنبياء: ٦٣]**. قال البقاعي: ولما كان إحضاره معلوماً أنهم لا يتأخرون عنه، استأنف أخباره لما يقع التشوف له، فقال: قالوا- منكرين عليه مقررين له، بعد حضوره على تلك الهيئة- : أأنت فعلت هذا الفعل الفاحش؟![٢]، ومن ثم نرى هنا تحقيق عناصر التداولية في القصدية التي ألقى بها الكفار هذا الخطاب لإبراهيم عليه السلام، كما تتحقق المقامية في أن الخبر خال من كل المؤكدات، فهو مجرد خبر ابتدائي.

٢. **الخبر الطلبي:** حين يكون لدى المخاطب شك في الخبر، أو عوامل شك أو إحجام عن قبول الخبر، فإن حاله تكون حال طالب يسأل عن صحة الخبر، فيحسن أن يؤتى له بالجملة الخبرية مقترنة بما يؤكد صحة مضمون الخبر، ويؤتى فيها بمقدار من المؤكدات يلائم نسبة التشكك لديه وعوامل الإحجام عن قبوله الخبر[٣]، ومن الخبر الطلبي قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ **[القصص: ٢٠]** قال البقاعي: قوله: يا موسى أكد إشارة إلى أن الأمر قد دهم فلا يسع الوقت للاستفصال ... ثم علل على سبيل التأكيد لما علم من صدق قوله[٤]، وهنا تظهر بوضوح عناصر التداولية في أسمى صورها، خصوصاً عنصر المقبولية، والمتمثلة في استجابة القارئ للنص، كما ذكر البقاعي.

---

(١) الميداني، عبد الرحمن، (١٩٩٦) البلاغة العربية، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، الدار الشامية (١٧٨/١).

(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٥/ ٩٣).

(٣) الميداني، عبد الرحمن، (١٩٩٦) البلاغة العربية، (١٧٩/١).

(٤) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٥/ ٩٣).

٣. **الخبر الإنكاري:** حين يصل المخاطب إلى حالة الإنكار ورفض قبول الخبر، يكون من بلاغة الكلام الخبري وجوب اقترانه بالمؤكدات التي تلائم حالة الإنكار والرفض في نفس المخاطب به ضعفا وشدة[١] كقوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**﴾ **[يس:١٣-١٦]** فقد تأكد الخبر في قوله تعالى: (**إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**) بمؤكدين، هما: (إنَّ) و (اللام المزحلقة) قال البقاعي: "ولما واجهوهم بهذا التكذيب المبالغ في تأكيده زاد في تكذيب جوابه، فقالوا: (**إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**)... فالأول ابتداء لإخبار، وهذان جوابا إنكار. فأعطى كلاً ما يستحق"[٢].

الجدير بالذكر هنا أن للجملة الخبرية غرضين أصليين وضعا باعتبار المخاطب أو المتلقي، وهما: فائدة الخبر، ومعناها: أن يستفيد المخاطب معنىً جديداً لم يكن يعلمه قبل الكلام، ولازم الفائدة: ومعناه: أن النص لا يعطي المخاطب إفادة جديدة، لأنه عالم بالكلام ومعناه قبل ذلك.

وبالنظر في نظم الدرر رأيت أنه لاحظ خروج الخبر عن دلالته لمقتضى بلاغي، ومن ذلك التهكم والتبكيت والإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ **[الدخان: ٤٩]**، فالآية تخاطب أبا جهل، وهي تبكيت وإنكار له في زعمه أنه من أشرف الناس وأنَّ العذاب لن ينالَه، قال البقاعي: "ولما علم بهذا أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً، بل وصل الى غاية الهوان، دل عليه بالتهكم والإنكار ... فقال رداً على تكذيبهم ...﴿**إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ**﴾ **[الدخان: ٥٠]**.[٣]

وأرى هنا أن الخبر في الآية الكريمة خبر طلبي تأكد بأداتين (إنك) وضمير الفصل (أنت) وغرضه التوبيخ والاستهزاء، وهنا واضح أن النص يراعي حال المتلقي، وهي عناصر التداولية الحديثة، من حيث القصدية والمقامية والمقبولية.

---

(١) الميداني، عبد الرحمن، (١٩٩٦) البلاغة العربية، (١/١٧٩).
(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٦/ ٢٥١).
(٣) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٧/ ٨٢).

وعند البقاعي قد يأتي الخبر لمجرد إظهار الحسرة والندم والاستغفار، كما في تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ **[يوسف: ٥٣]**، فالخبر هنا من النوع الإنكاري وغرضه فائدة الخبر؛ لأن امرأة العزيز أخبرت النساء واعترفت بمراودتها ليوسف عليه السلام أول مرة مع إظهار الحسرة والندامة؛ لأنَّ النفس أمرتها بالسوء قال البقاعي: **(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)** أي تبرئة عظيمة عن مطلق الزلل.

وعلل عدم التبرئة بقوله مؤكداً لما لأكثر الناس من الإنكار **(بِالسُّوءِ)** أي هذا الجنس دائمًا لطبعها. وفي قوله تعالى يقول: **(إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)** علل آخر الآية بقوله مؤكداً، دفعاً لظن من يظن أنه لا توبة لهُ[١].

ومنه قول البقاعي في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى**﴾ **[ال عمران: ٣٦]** قال: "ولما أخبر بما اقتضى مضي عزمها قبل الوضع، أخبر بتحقيقه بعده، فقال: فلما وضعتها قالت، أي تحسرا، ذاكرة وصف الإحسان استمطارا للامتنان ... ولما كان مقصودها مع إمضاء نذرها بعد التحقق كونها أنثى والتحسر على ما فاتها من الأجر في خدمة البيت المقدس ... قالت (وليس الذكر كالأنثى) [٢].

وبتحليل كلام البقاعي نلاحظ خروج الخبر عن دلالته الأصلية إلى معنى آخر قصده المتكلم الحكيم وهو التحسر، فالمقام أصل المقال؛ لأنَّ لكل مقام مقالاً، والخبر يتحدد غرضه في سياق الخبر المقرر له، وهذه عناصر التداولية، من القصدية والمقامية والمقبولية.

وخلاصة الأمر نرى أن المتكلم ينتج نصوصاً تحمل مواداً معرفية ومعاني معينة يود إيصالها إلى السامع رغبة في تحقيق التواصل بينهما، والوقوف عند الكلام أو فائدة الكلام، وبهذا يكون كل من المخاطب والمخاطب محور العملية الكلامية، فالمتكلم يصوغ كلامه وفقاً لأحوال السامع ومعارفه، وهذه العلاقة المنظمة هي التي تقود إلى الكشف عن المعاني وعن مقاصد المتكلمين[٣]، وفي

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٤/ ٥٩).
(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٢/ ٧١).
(٣) إسماعيل، هناء، النحو القرآني في ضوء لسانيات النص (٢٢٤).

نفس الصدد يقول أحد الباحثين: إن سلوك المرسل إليه ينعكس على المرسل في بناء خطابه؛ إذ يرعي أحواله وظروفه، ويستحضر معرفته وقدرته، كما لا ينسى ما يحيط به من أحداث اجتماعية وأحوال نفسية، ومعنى هذا أن المخاطب ينتج نصه ويختار أدواته اللغوية وآلياته تبعاً للمخاطب، أو السامع الذي يعتبر شريكاً له في العملية الإنتاجية، فالمرسل يوجه خطابه نحو المرسل إليه سواء كان سامعاً أو قارئاً، والمرسل إليه ليس غافلاً، فخصائصه معروفة لدى المرسل مسبقاً[١]، وقد أدرك علماء العربية والتفسير مدى التفاعل بين المتكلم والمخاطب، والنص وهو وجه من أوجه التماسك الدلالي[٢]، أي إن العلاقة الوثيقة التي تربط هذه الأطراف، ولا سيما بين المتكلم والمخاطب، تؤدي إلى تحقيق التماسك، وهي الغاية المرجوة من إنتاج النصوص.

واستناداً لما سبق نقول: إن المتكلم ليس الوحيد في عملية الإنتاج اللغوي بل للمخاطب دور أساسي فيه، وكذلك المقام .

(١) الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب (٤٥٦).

(٢) الفقي، صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (١٣٢).

## المبحث الثاني: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وصوره عند البقاعي.

مصطلح الحال يرادف في أغلب استعمالاته عند علماء البلاغة مصطلح المقام، وكلا المصطلحين يقصد بهما مجموعة الظروف والملابسات التي تلازم النشاط اللغوي.

وقد عرفت الحال بأنها: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يضبط إيقاع كلامه وفق الوضع المنشود، ومعنى ذلك أن الأحوال أو المقامات هي مجموعة المؤثرات التي تُوجه لغة الكلام البليغ؛ بحيث تترك فيه سمات تعبيرية توائمها وتتنوّع بتنوُّعها، وهذه السمات هي ما سماها السكاكي وغيره في تعريف المعاني، وهذه الخواص هي ما يقتضي الحال ذكرها، أو ما يعرف بمقتضى الحال حسب اصطلاح هؤلاء البلاغيين. (١)

ومراعاة المقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال من الوسائل التي تجعل النص يبدو أكثر تماسكاً، والنص ينتج من مقام معين، وله رسالة وهدف، يبينها المقام الذي أنتج فيه النص، إذاً لابد من رعاية الموقف الذي أنشئ فيه النص من أجل فهمه وتفسيره، تفسيراً مناسباً(٢).

ويمكننا القول إنه من خلال العلاقة الوطيدة التي تربط بين كل من النص والمقام، نتوصل إلى فهم النص وإدراك معناه وتفسيره على النحو الذي يقصده المتكلم، ويهدف إليه، ومن خلال هذه التعريف الاصطلاحي للحال والمقام أقول: إن النص يرتبط ارتباطاً شديداً بالسياق وبكل المقتضيات والملابسات، ولهذا، فإن لكل مقام مقالاً، وعليه، فالمقامية إحدى أهم العناصر التي تحقق النصية، وتنتج كلاماً مناسباً لمقتضى الحال.

ومن صور مطابقة الكلام لمقتضي الحال نص كلام سيدنا زكريا عليه السلام عندما بُشّر بالغلام، فقال: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ **[ال عمران: ٤٠]**، فالحال والمقام مقام

(١) القزويني، جلال الدين، (١٩٩٣) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة ثالثة، بيروت، دار الجيل (١/ ٥٢).

(٢) إسماعيل، هناء، النحو القرآني في ضوء لسانيات النص (٢٢٧).

متردد غير متيقن من إمكانية الولادة، ويَسُوقُ زكريَّا عليه السَّلام لذلك دليلين منطقيين يؤكدان ترددَه، أمَّا الدَّليل الأول فعَقْرُ زوجته، وأمَّا الدَّليل الثاني فكِبَرُهُ، وهذان الدَّليلان يُناسبان المقام الذي هو فيه، والبقاعي آثر إيضاح دلالة السياق أكثر، فقال:

ولما كان مطلوبه ولداً يقوم مقامه فيما هو فيه من النبوة التي لا يطيقها إلا الذكور الأقوياء الكلمة، وكانت العادة قاضية بأن ولد الشيخ يكون ضعيفاً لا سيما إن كان حرثه مع الطعن في السن في أصله غير قابل للزرع، أحب أن يصرح له بمطلوبه، فقال: (أنّى) أي: كيف، ومن أين يكون لي. وعبر بما تدور مادته على الغلبة والقوة زيادةً في الكشف(١).

ولعلَّ بِشْرَ بن المعتمر أوَّلُ مَنْ ذَكَرَ فكرة المطابقة في صحيفته المشهورة، فقد قال: "وإنَّما مَدار الشَّرف على الصَّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يَجب لكل مَقامٍ مِن المقال"(٢)، ويمكننا أن نفهم من عَرْضِهِ فكرةَ المطابقة أنَّ عناصرَ ثلاثةً تنظمها، هي: عنصر المعنى، وعنصر المستقبِل أو المخاطَب، وعنصر المقام أو الحال الذي صار مَعِنيَ التَّحليل (٣).

ويعلق الدكتور شوقي ضيف على هذه الفكرة، فيقول: يمضي بشر فيصور كيف أنَّ المتكلم ينبغي أن يُوازن مُوازنةً تامَّةً بين مَعانيه، وأَقْدَار الأحوال وأقدار المستمعين، أو بعبارة أخرى: ينبغي أن يُلائِمَ في دقَّةٍ بين كلامه وبين معانيه وموضوعاته، كما يلائم بينه وبين المستمعين ومن يُوجّه إليهم الحديث، وبِشر –كغيره من علماء العربية– بذلك يَرْسم في دِقَّة الفكرة اليونانيَّة التي تدعو إلى المُلاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم"(٤).

---

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٢/ ٧٧).

(٢) الجاحظ، عمرو بن بحر، (١٩٩٨) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة سابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي (١/ ١٣٥).

(٣) الخولي، إبراهيم، (٢٠٠٧) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، طبعة أولى، القاهرة، دار البصائر (٤١).

(٤) ضيف، شوقي، (٢٠٠٧) البلاغة تطور وتاريخ، طبعة تاسعة، القاهرة، دار المعارف (٤٥).

وبالنظر في نظم الدرر نرى الكثير من مطابقة الكلام لمقتضي الحال، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ **[الأعراف: ٢٣]**، فقوله:(ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) اعتراف منهما بخطأ حدث، وهو إخبار جاء بصيغة الماضي؛ لتأكيد وقوع الخطيئة بعد إنذار ونهي، قال البقاعي: (قَالا رَبَّنَا) نداء مضاف؛ والأصل يا ربنا، إن في حذف (يا) معنى التعظيم، فاعترفا بالخطيئة وتابا إلى الله. وأكد البقاعي الغرض البلاغي للآية، فقال: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) اعتراف وطلب للمغفرة والرحمة بأن أخرجناها من نور الطاعة إلى ظلام المعصية.(١)

ومن أجلى صور مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ **[مريم: ٤]**. ومما يلفت الانتباه في تفسير البقاعي للآية أنه فسرها بالغرض البلاغي الذي خرج إليه الخبر بلفظ واحد فقط، وهذا ما يدل على عمق فهمه للمعاني البلاغية في القرآن الكريم وسبره للأساليب العربية، عندما فسر (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) بمعنى (ضَعف).(٢)

ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا موسى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ **[القصص: ٢٤]**، وإذا ما نظرنا إلى تفسير البقاعي نجده يقول: ولما كان حاله في عظيم صبره حال من لا يطلب، أكد سؤاله إعلاماً بشديد تشوقه لما سأل فيه، وزيادة في التضرع والرقة ، فقال: (إِنِّي) وأكد الافتقار بالإلصاق باللام دون (إلى). فقال لما أي لأي شيء ... وعبر بالماضي تعميماً لحالة الافتقار، وتحققاً لإنجاز الوعد بالرزق فقال أنزلت (٣)، وفيه دلالة على مناسبة الكلام لمقتضى الظاهر وأن الجوع والحاجة وصل في سيدنا موسى عليه السلام مبلغاً عظيماً، ولهذا طابق الكلام مقتضى الظاهر، وكشف عن ذلك البقاعي بطريقة رائعة، فسؤال سيدنا موسى الرحمة والعطف جاء في أسلوب خبري، وهذا ما رأيناه في كلام البقاعي؛ لأنه أورد تفسير جمهور المفسرين بأنه يريد ما يأكله،

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٣/ ١٨).
(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٤/ ٥٢٠).
(٣) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٥/ ٤٧٧).

وأكد تفسيره للآية بذكر السياق الخبري، معتمداً على قدرته اللغوية في بيانه للدلالة وفقه اللغة، فمرة يأتي الخير بمعنى الطعام وطوراً بمعنى المال، وتارة بمعنى القوة، وأخرى بمعنى العبادة، وكل هذه المعاني إذا ما تضمنتها الآية تدل على معنى الاسترحام والاستعطاف، ولكنَّ سيدنا موسى كان يطلب الرحمة لقلة الطعام، وقد أيد البقاعي كلامه بنقله من تفسير ابن عباس المتضمن بلوغ موسى من الجوع مبلغاً جعله يطلب الرحمة والاستعطاف من الله عز وجل، فقال: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان قد بلغ من الضر أن اخضر بطنه من أكل البقل وضعف حتى لصق بطنه بظهره [١].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ **[يونس: ٢٦]**. فالأسلوب الخبري في الآية الكريمة غرضه حفز الهمة وتحريض النفوس لفعل الإحسان؛ لأنَّ فاعل الإحسان سيُجزى بالإحسان وبزيادة هي تكريم من الله على فعل الإيمان. ونرى هنا دلالات النص الداخلية في: تقدم الجار والمجرور والفعل، ثم جاء المبتدأ، والاسم المعطوف للتشويق إلى نتيجة الإحسان، ولم يذكر المفسرون في تفسيرهم للآية المذكورة آنفاً الغرض البلاغي في الآية، من تحريك الهمم إلى الزيادة في الإيمان، وإنما اكتفوا بتفسيرهم الحسنى بالجنة، والزيادة برؤية وجه الله تعالى بعد أن يكشف الحجاب عنهم[٢]، والغرض البلاغي هنا هو تنهيض الهمة.

ومن الإخبار المقصود به تحريك الهمم إلى ما يلزم تحصيله قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ **[النساء: ٧٦]**. فالمضارع (يُقَاتِلُونَ) إخبار أريد بهِ الحض وتحريك الهمة نحو الجهاد في سبيل الله، "ولما أخبر عن افتقارهم إلى الأنصار وتظلمهم من الكفار، استأنف الإخبار عن الفريقين، فقال مؤكداً للترغيب في الجهاد: (الذين آمنوا)، أي صدقوا في دعواهم الإيمان، (يقاتلون) أي تصديقاً لدعواهم من غير فترة أصلاً (في سبيل

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٥/ ٤٧٧).
(٢) الآلوسي، محمود، (١٩٩٠)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (٤/ ١٢٤).

الله)، أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال، قاصدين وجهه بحماية الذمار وغيره" (١).

فالبقاعي ساق لنا الغرض البلاغي الذي هو المقصود من الخبر، وموافقته لمقتضى الحال والمقام، مع بيان قوة فقهه لدلالة السياق الداخلية والخارجية وموافقة المقام لمقتضى الحال.

ومن الخبر الذي يحمل مقتضى تحريك الهمم والحض مناسباً لمقتضى الحال والمقام، قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ **[النساء: ٦٩]**. فقوله تعالى: (وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) إخبار فيه تحريك الهمم؛ ليكون المسلم ممن يرافق ويصاحب الرفقاء الأربعة المذكورين في الآية، وقد سمّى البقاعي الأسلوب في الآية الكريمة إخباراً، وأخرجه بلاغياً ودلالياً لغرض استدعاء الطاعة، فقال: ولما رغب في العمل بمواعظه، وكان الوعد قد يكون لغلظ في الموعوظ، وكان ما قدمه في وعظه أمراً مجملاً؛ رغب بعد ترقيقه بالوعظ في مطلق الطاعة التي المقام كله لها، مفصلاً إجمال ما وعد عليها، فقال: (ومن يطع الله) أي في امتثال أوامره والوقوف عند زواجره مستحضراً عظمته، طاعةً هي على سبيل التجدد والاستمرار (٢).

وورد هذا الأسلوب أعني مناسبة الكلام لمقتضى الحال في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ **[يونس: ١٣]**، فالأسلوب الإخباري الموجود في الآية جاء لوعيد الكفار وردعهم، فهم لا يعجزون ربهم مهما فعلوا، وتاريخ الأمم السابقة من الكافرين يثبت ذلك، فكما أهلكوا يستطيع الله أن يهلك الأمم التالية. وفسر البقاعي الآية، فقال: ولما كان محط نظرهم الدنيا، وكان هذا صريحاً في الإمهال للظالمين والإحسان إلى المجرمين، أتبعه بقوله تعالى، مهدداً لهم، رادعاً عما هم فيه من اتباع الزينة مؤكداً؛ لأنهم ينكرون أن هلاكهم لأجل ظلمهم: (ولقد أهلكنا) أي بما لنا من العظمة (القرون) أي على ما لهم من الشدة والقوة؛

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٢/ ٢٨١).
(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٢/ ٢٨١).

ولما كان المهلكون هلاك العذاب المستأصل بعض من تقدم، أثبت الجار، فقال: (من قلبكم لما ظلموا) أي تكامل ظلمهم إهلاكاً عمَّ آخرهم وأولهم كنفس واحدة، دفعاً لتوهم أنه سبحانه لا يعم بالهلاك(١)، ولا يخفى الترابط بين أجزاء النص الداخلية والخارجية ومناسبتها لمقتضى الحال والمقام.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن البقاعي في تفسيره كشف عن مقاصد النص القرآني في تفسير المعاني القرآنية وتوضيح الشريعة الإسلامية، مبرزاً بذلك فصاحة القرآن، مستعيناً بالأساليب الحديثة في بيان دلالة النص الداخلية أو الخارجية، والغرض من ذلك هو بيان جماليات القرآن وبيان توضيحه وحكمة إعجازه.

كما يلفت الانتباه في دراسة البقاعي في القرآن الكريم إلى أنه يعتمد على السياق العام للآيات لفهم النص، وبيان مطابقته لمقتضى الحال وإبراز الإعجاز اللغوي فيه، بأسلوب جميل.

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٣/ ٤٢٤).

## المبحث الثالث: مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر عند البقاعي.

المقتضى هو الوجه المخصوص، أو الخصائص التي يقتضيها الحال[١] ويُعرَفُ أيضا بالاعتبار المناسب، في حين أن الظاهر هو ما بدا المقصود منه بنفس الكلام، وانكشف واتضح معناه من غير تأمل وتفكر، وضدّه الخفي الذي لا يظهر المراد منه إلا بالطلب[٢].

أما مقتضى الظاهر فهو أن تؤدي الجمل والعبارات المعنى الذي تحمله الألفاظ، وما تدل عليه الكلمات أو الكلام في الظاهر[٣]، أي أن المعنى المستفاد منه هو المعنى الأول المتبادر إلى الذهن من ظاهر اللفظ والتركيب، المتوصَّل إليه بغير واسطة بدلالة اللفظ وحده، وقد سماه عبد القاهر الجرجاني بالمعنىَ الأول، مثل: عمرو منطلقٌ[٤]، فالمقصود مجرد انطلاق عمرو.

كما يُقصَدُ بمقتضى الظاهر أيضًا الإتيان بالكلام مصورًا بصورة تطابق ظاهر الحال. والمرُادُ بظاهر الحال: الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفاً على وجه خاص، شرطَ أن يكون هذا الأمر ثابتاً في الواقع أو مطابقا له، وأن يتصف المخاطب بهذا الأمر أو هذه الصفة فعلياً، وهذا يعني أن إيراد الكلام وفق مقتضى الظاهر يتعلق بأمرين:

**الأول: مطابقة الكلام للواقع وحال المخاطب:**

ويراد به مطابقة الكلام للمقام والموقف الذي يحدث فيه؛ فإن كان المقام للتهديد أو الوعيد جاء الكلام على نسق ذلك، وإن كان المقام يستدعي الإطناب مثلاً، أطنب، ومثال ذلك قول سيدنا موسى عليه السلام، عندما سأله الحق تبارك

---

(١) الربيعي، حامد، (١٩٩٦)، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، طبعة أولى، السعودية، جامعة أم القرى مكة، (٥٤٥).

(٢) الهاشمي، أحمد، (٢٠٠٧)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط يوسف الصميلي، طبعة أولى، بيروت، مكتبة صيدا (٤١).

(٣) مطلوب، أحمد، (٢٠٠٧)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (عربي-عربي)، طبعة ثالثة، بيروت، مكتبة لبنان، (٦٤٢).

(٤) الجرجاني، عبد القاهر، (د. ت) دلائل الإعجاز، (٢٦٢).

وتعالى عن العصا، فقال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ **[طه: ١٨]**، فمقام الشوق للكلام في الحضرة الخالق تعالى تقتضي الإطناب، وفي ذلك يقول البقاعي: قال: (هي) أي ظاهراً وباطناً (عصاي)، ثم وصل به مستأنساً بلذيذ المخاطبة قولَه بياناً لمنافعها خوفاً من الأمر بإلقائها كالنعل: (أتوكؤا) أي أعتمد وأرتفق وأتمكن (عليها) أي إذا أعييت أو أعرض لي ما يحوجني إلى ذلك من زلق، أو هبوط، أو صعود، أو طفرة، أو ظلام ونحو ذلك؛ ثم ثنى بعد مصلحة نفسه بأمر رعيته فقال: (وأهشُّ) أي أخبط الورق...و (بها على غنمي)، ولما كان أكمل أهل ذلك الزمان، خاف التطويل على الملك فقطع على نفسه ما هو فيه من لذة المخاطبة، كما قيل: اجلس على البساط وإياك والانبساط، وطمعاً في سماع كلامه سبحانه وتعالى، فقال مجملاً: (ولي فيها مآرب) أي حوائج ومنافع يفهمها الألبّاء[١]، ومن الملاحظ في تفسير العلامة البقاعي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقوة توضيح العلامة البقاعي لهذا في تفسير الإطناب في كلام سيدنا موسى عليه السلام.

**ثانياً: مطابقة الكلام للواقع النفسي للمخاطب:**

يقصد به اتصاف المخاطب بالأمر الداعي للكلام أو بالصفة فعلياً، وما يبدو من ظاهر حاله[٢]، فإذا كان المخاطَب خالي الذهن من الحكم، فهذه حالٌ تستدعي من المتكلم أنْ يُورد كلامه خاليًا من المؤكدات، فمثلاً: محمد ناجحٌ، في حين إذا كان متردداً في قبول الخبر، فهذه حال أخرى تستوجب تأكيده بمؤكِّد واحد، فيقول: إنّ محمدًا ناجحٌ، أما إن كان منكرًا له جملة وتفصيلاً، فهذا يتطلب تأكيده بأكثرَ من مؤكد فيقال: إنَّ محمدًا لناجحٌ؛ ليكون الكلام في قوة الإثبات والنفي[٣].

---

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٥/ ١٦).

(٢) العاكوب، عيسى على، (د. ت) الكافي في علوم البلاغة المعاني البيان البديع، طبعة أولى، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤٢).

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر، (١٩٣٢) موجز البلاغة، طبعة أولى، تونس، المطبعة التونسية، (١٢).

- **مفهوم مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر:**

يدل مصطلح المخالفة على التغاير الحاصل بين الطرفين، والانصراف والعدول عن وجهة إلى أخرى؛ قال الراغب الأصفهاني: أن يأخذَ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله.(١)

أما مخالفة مقتضى الظاهر، فهي: اشتمال الكلام المركب على جزء مخالف في ظاهره لنسق ذلك التركيب الكلي مراعاة لما يقتضيه الحال من تلك المخالفة(٢)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ **[يس: ٢٢]**؛ فقد أعرب عن المعنى أولاً بطريق التكلم، (ما لا أعبدُ) ثم غير الوجهة ثانياً معبراً بطريق الخطاب، (وإليه ترجعون) على سبيل الالتفات، ومقتضى الظاهر: وإليه أرجع، والعلة في ذلك التلطف في نصيحة قومه ترغيبًا لهم في الحق، واستمالةً لهم نحو الهدى(٣).

كما أن المقصود من مخالفة مقتضى الظاهر أيضاً تأدية الجمل والعبارات معان إضافية مخالفة لما تحمله الألفاظ ويُؤديه الكلام في الظاهر، تُعرَف بالمعنى الثاني، ومعنىَ المعنىَ، وهو الذي لا نتوصل إليه بدلالة اللفظ وحده، بل بوسائط ولوازم، ويحتمل تأويلات وتوجيهات(٤).

مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ **[الشعراء: ١٦٥]**، فالظاهر أن المراد من الآية الكريمة الاستفهام، وهو طلب الاستخبار والعلم بما هو مجهول وغير معلوم، غير أنه خرج عن ذلك وخالف ظاهر اللفظ معناه، حاملاً معنَى التوبيخ، قال البقاعي: أنكر عليهم ما يوجب عذابهم من إيثارهم شهوة

---

(١) الأصفهاني، الراغب، (د. ت) المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة أولى، بيروت، دار المعرفة، (١٥٦).

(٢) العمري، ظافر، (٢٠٠٨) بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل، طبعة أولى، القاهرة، مكتبة وهبة، (١١).

(٣) فيود، بسيوني، (٢٠١٣)، من بلاغة النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم، طبعة أولى، القاهرة، مؤسسة الرسالة، (١٣٠).

(٤) السكاكي، أبو يعقوب، (٢٠٠٠) مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، طبعة أولى، بيروت، دار الكتب العلمية، (٥١٥).

الفرج، المخرج لهم إلى ما صاروا به سبَّة في الخلق، فقال موبخاً مقرعاً بياناً لتفاحش فعلهم وعِظَمه : **(أَتَأْتُونَ)** أي إتيان المعصية... من بين الخلائق، أي أنكم اختصصتم بإتيان الذكران، لم يفعل هذا الفعل غيركم(١).

من جهة أخرى، تُعين مخالفة مقتضى الظاهر إعطاء الكلام صورة أو كيفية مخصوصة مخالفة لظاهر حال المخاطب وواقعه النفسي، ومستجيبة لتصور وضع المتكلم في الحسبان، وتخيله تخيلاً مستنداً إلى أسباب خاصة بَدَت له حال(٢)، نحو قولنا لمن لا يصلي ويرتكب المعاصي: إن الصلاة لركنٌ من أركان الإسلام، و إنَّها لتنهى عن الفحشاء والمنكر، فهو عاملٌ بذلك غير منكر له، ولكن سلوكه يوحي بعكس ذلك، فخوطب بما يطابق هذه الحال، بإيراد الكلام مؤكدًا بأكثرَ من مؤكد(٣).

وقد صرّح البقاعي بأن السياق قد يخرج أحياناً على خلاف الظاهر، فقال في قوله تعالى: ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ**﴾ **[الصافات: ٥١]** لما كان ظنه أنه لا يخلص من شر ذلك القرين الذي يحدث عنه فنجاه الله منه على خلاف الظاهر، فكان ذلك إحدى النعم الكبرى، نبه عليه بالتأكيد، فقال: **(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)** أي جليس من الناس كأنه شيطان مبين، **(يَقُولُ)** أي مكذباً بالبعث مستبعداً له غاية الاستبعاد مجدداً لقوله في كل وقت، يريد أن يختدعني بلطافة قياده إلى سوء اعتقاده : ﴿**يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**﴾ [الصافات: ٥٢] (٤).

وقال صراحة بأن من مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ **[المائدة: ١٠١]** ولما كانت صفاته سبحانه أزلية، لا تتوقف الواحدة منها على غيرها، وضع الظاهر موضع المضمر؛ لئلا يختص بما قبله، فقال: نادباً من وقع منه

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٥/ ٣٨٤).
(٢) العاكوب، عيسى على، (د. ت) الكافي في علوم البلاغة، (١٤٣).
(٣) سعدودي، أمينة، وفوزية سرير عبد الله، (٢٠٢٢)، مخالفة مقتضى الظاهر وعلاقتها بالتخفيف وأمن اللبس، مجلة جسور المعرفة، العدد الثالث، المجلد الثامن، (٥).
(٤) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٦/ ٣١٢).

ذنب إلى التوبة: (والله) أي الذي له مع صفة الكمال صفة الإكرام (غَفُورٌ) أزلاً وأبداً يمحو الزلات عيناً وأثراً ويعقبها بالإكرام، على عادة الحكماء (حَلِيمٌ) أي لا يعجل على العاصي بالعقوبة [١].

وقال في قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ **[التوبة: ٨١]** لماَ علل سبحانه عدم المغفرة بفسقهم ، وأتى بالظاهر موضع المضمر إشارةً إلى اتصافهم به وتعليقاً للحكم بالوصف، علل رسوخهم في الفسق، بعد أن قدم أن المنافقين بعضهم من بعض فهم كالجسد الواحد، بقوله : **(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ)** أي الذين وقع تخلفهم بإذنك لهم وكراهة الله لانبعاثهم **(بِمَقْعَدِهِمْ)** أي قعودهم عن غزوة تبوك، ولعله عبر بهذا المصدر لصلاحيته لموضع القعود؛ ليكون بدلالته على الفرح أعظم دلالة على الفرح بالموضوع [٢].

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[الحجرات: ١٠]**: ولما كانت الأخوة داعية، ولا بد، إلى الإصلاح، سبب عنها قوله : **(فَأَصْلِحُوا)** ولما كانت الطائفة قد تطلق على ما هو أصل لأن يطاف حوله، كما يطلق على ما فيه أهليه التحليق والطواف، وكان أقل ما يكون ذلك في الاثنين، وأن مخاصمتهما يجر إلى مخاصمة طائفتين، بأن يغضب لكلٍّ ناس من قبيلته وأصحابه، قال- واضعاً الظاهر موضع المضمر، مبالغة في تقرير الأمر وتأكيده، وإعلاماً بأن المراد بالطائفة القوة لا الفعل، بحيث يكون ذلك شاملاً للاثنين فما فوقهما-: **(بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)** أي المختلفين بقتال أو غيره كما تصلحون بين أخويكم من النسب [٣].

وقال في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ **[الانشقاق: ٢٠-٢٢]**: لما كان هذا استفهاماً إنكارياً معناه النفي، فكان التقدير: إنهم لا يؤمنون، ولا عذر لهم في ذلك أصلاً، أضرب

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٣/ ٣٦٨).
(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٢/ ٥٥٠).
(٣) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٧/ ٢٣١).

عنه بقوله: (بَلِ) ووضع الظاهر موضع المضمر تعميماً وتنبيهاً على الوصف الذي حملهم على التكذيب، فقال : (الَّذِينَ كَفَرُوا) أي ستروا مرائي عقولهم الدالة على الحق(يُكَذِّبُونَ) أي بالقرآن وبما دل عليه من حقائق العرفان المعلية إلى أوج الإيمان بالواحد الديان [١].

وبتحليل هذه الإشارة التفسيرية يتضح أن العلامة البقاعي راعي مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر جلياً، لأنه يريد أن يكشف عن أبعاد النص، ومدى العلاقة بينه وبين مقتضى الظاهر من جهة، وكشف الإعجاز اللغوي في كتاب الله العظيم من جهة أخرى.

ومن صور مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر: العدولُ، فقال البقاعي في قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ **[مريم: ٢٨]**، لما عدل عن (باغية) عدل لفظه، فلم يقل: بغية[٢].

ومن إشاراته إلى أن ظاهرة الالتفات البلاغية من باب مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر، قوله في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ **[الأنفال: ٦٥]**: إن يكن، ولما كان لذة الخطاب تثير الهمم وتبعث العزائم وتوجب غاية الوثوق بالوعد، عدل عن الغيبة، فقال: ﴿مِنْكُمْ عِشْرُونَ﴾ أي رجلاً (صَابِرُونَ)، أي الصبر المتقدم (يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ).[٣]

(١) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٨/ ٣٧٤).
(٢) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٨/ ٤١٤).
(٣) البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر (٣/ ٢٣٩).

## الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة حاولت فيها إلقاء الضوء على جهود الإمام البقاعي في التداولية، تبينت بعض الحقائق، أهمها:

- القصدية والمقامية المقبولية مصطلحات حديثة لجزء من موضوعين عربيين خالصين، وهما: مراعاة مرادِ المتكلم، ومراعاة حال المخاطب.
- كان البقاعي في كتابه نظم الدرر شغوفاً ببيان قصدية النص القرآني من كلماته وآياته وسوره، وذلك من خلال ما أوتي من معرفة لغوية بعيدة عن التعقيد والفلسفة، وفي حدود ما يحتمل اجتهاده.
- حاول البقاعي إظهار مراعاة النص القرآني لحال المخاطب بالقرآن الكريم، وذلك على مستوياته كافة؛ المفردات والتراكيب والأساليب، وما يتعلق بها من ناحية، وعلم المخاطب وظروفه النفسية والاجتماعية التي يمر بها من ناحية أخرى.
- تميزت لغة القرآن الكريم- بحسب ما تناوله البحث- بخصائص وسمات خاصة، من أهمها: التداولية بأبعادها المختلفة: القصدية والمقامية والمقبولية من متلقي النص القرآني.
- كان البقاعي موفقاً في الجمع بين بيان قصدية النص القرآني من نصوص الآيات والسور القرنية وبين بيان طرق مراعاة حال متلقي هذا النص المُعجِز.
- لعل سبب تسمية كتابه نظم الدرر، يكشف النقاب عن شغف البقاعي بالكشف عن هذه العلاقة السياقية بين كل أجزاء الكتاب المعجز، سواء السور أم الآيات أم الجمل والعبارات.
- تمثلت البلاغة شاخصة للعيان في النص القرآني؛ ومن مظاهرها مراعاة حال المخاطبين بمطابقة السياق القرآني لفظاً وجملةً لما يقتضيه الحال.
- كشف القرآن الحقيقة الكاملة أمام الْمَدْعُوِّيْنَ في مخاطبتهم بما يناسبهم كي تُثَار مشاعرهم وتتحرك قلوبهم لقبول الحق.

**ومن أهم توصيات البحث:**

- ضرورة دراسة الدلالة السياقية في كتب المفسرين والكشف عن علاقتها بالدرس اللغوي الحديث.

- كذلك ضرورة الاستفادة من أداوت الدرس الحديث عند قراءة كتب التراث، فالفرق يتمثل في المصطلحات، على الرغم من الاتفاق في المنهج والنتائج.

## فهرس المراجع والمصادر:

- إسماعيل، هناء محمود، (٢٠١٢)، النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الأصفهاني، الراغب، (د. ت) المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة أولى، بيروت، دار المعرفة.
- الآلوسي، محمود، (١٩٩٠)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- البقاعي، برهان الدين، (١٩٩٥)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، (١٩٣٢) موجز البلاغة، طبعة أولى، تونس، المطبعة التونسية.
- بلانشيه، فليب، (٢٠٠٧)، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع.
- شبل، عزة، (٢٠٠٧)، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، طبعة أولى، القاهرة، مطبعة الآداب.
- الجرجاني، عبد القاهر، (د. ت) دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة خامسة، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (١٩٩٨) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة سابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- حسان، تمام حسان، (٢٠٠٧)، اجتهادات لغوية، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب.
- حسين، الساعاتي، (٢٠٠٠) إمتاَعُ الفُضَلاء بتَراجِم القرّاء فِيما بَعدَ القَرن الثامِن الهِجري، تقديم محمَّد تميم الزّعبي، الطبعة الأولى ، بيروت، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.
- الخولي، إبراهيم، (٢٠٠٧) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، طبعة أولى، القاهرة، دار البصائر.

- الربيعي، حامد، (١٩٩٦)، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، طبعة أولى، السعودية، جامعة أم القرى مكة.
- دي بوجراند، (١٩٩٨) النص والخطاب والإجراء، تحقيق تمام حسان، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب.
- السكاكي، أبو يعقوب، (٢٠٠٠) مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، طبعة أولى، بيروت، دار الكتب العلمية.
- سعدودي، أمينة، وفوزية سرير عبد الله، (٢٠٢٢)، مخالفة مقتضى الظاهر وعلاقتها بالتخفيف وأمن اللبس، مجلة جسور المعرفة، العدد الثالث، المجلد الثامن.
- الشهري، عبد الهادي بن ظاهر، (٢٠٠٤)، استراتيجيات الخطاب، الطبعة الأولى، ليبيا، دار الكتاب.
- ضيف، شوقي، (٢٠٠٧) البلاغة تطور وتاريخ، طبعة تاسعة، القاهرة، دار المعارف.
- العاكوب، عيسى على، (د. ت) الكافي في علوم البلاغة المعاني البيان البديع، طبعة أولى، بيروت، دار الكتب العلمية.
- العمري، ظافر، (٢٠٠٨) بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل، طبعة أولى، القاهرة، مكتبة وهبة.
- فرج، أحمد، (٢٠٠٧)، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، طبعة أولى، القاهرة، مكتبة الآداب.
- فيود، بسيوني، (٢٠١٣)، من بلاغة النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم، طبعة أولى، القاهرة، مؤسسة الرسالة.
- قاسم، سيزا، (١٩٩٥)، القارئ والنص، مجلة عالم الفكر، (العدد٣،٤) (المجلد ٢٣).
- القزويني، جلال الدين، (١٩٩٣) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة ثالثة، بيروت، دار الجيل.

- كحالة، عمر، (د. ت)، معجم المؤلفين، طبعة أولى، بيروت، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- مبدر، عقيل، (٢٠١٢)، أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة العراق.
- مسعود، جبران، (٢٠١٢)، الرائد، طبعة ثالثة، بيروت، دار العلوم للملايين، مادة مقياس.
- مطلوب، أحمد، (٢٠٠٧)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (عربي-عربي)، طبعة ثالثة، بيروت، مكتبة لبنان.
- الميداني، عبد الرحمن، (١٩٩٦) البلاغة العربية، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، الدار الشامية.
- نحلة، محمود، (٢٠٠٢)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، طبعة أولى، الإسكندرية، دار المعرفة الجديدة.
- الهاشمي، أحمد، (٢٠٠٧)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط يوسف الصميلي، طبعة أولى، بيروت، مكتبة صيدا.
- ناصف، مصطفى، (١٩٩٥)، اللغة والتفسير والتواصل، طبعة أولى، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- نعمية، أنطوان، (٢٠٠٠)، معجم المنجد، الطبعة الأولى، بيروت، دار المشرق.

## References :

- 'iismaeil, hana' mahmud, (2012), alnahw alquraniu fi daw' lisaniaat alnas, altabeat al'uwlaa, bayrut, dar alkutub aleilmiati.
- al'asfahani, alraaghiba, (d. ta) almufradat fi ghurayb alqurani, tahqiq muhamad sayid kilany, tabeat 'uwlaa, bayrut, dar almaerifati.
- alalwsi, mahmud, (1990), ruh almaeani fi tafsir alquran aleazim walsabe almathani, bayrut, dar 'iihya' alturath alearabii.
- albiqaei, burhan aldiyn, (1995), nuzam aldarar fi tanasub alayat walsuwr, altabeat al'uwlaa, bayrut, dar alkutub aleilmiati.
- abin eashur, muhamad altaahir, (1932) mujiz albalaghati, tabeat 'uwlaa, tunis, almatbaeat altuwnusiati.
- shibla, eazat, (2007), ealam lughat alnasi bayn alnazariat waltatbiqi, tabeat 'uwlaa, alqahirati, matbaeat aladab.
- aljirjani, eabd alqahir, (d. t) dalayil al'iiejazi, tahqiq mahmud muhamad shakir, tabeatan khamisati, alqahirati, maktabat alkhanji.
- aljahaz, eamru bn bahri, (1998) albayan waltabyinu, tahqiq eabd alsalam harun, tabeat sabieatun, alqahirati, maktabat alkhanji.
- hasan, tamaam hasan, (2007), ajtihadat lughawiatun, altabeat al'uwlaa, alqahiratu, ealam alkutub.

- alkhuli, 'iibrahim, (2007) muqtadaa alhal bayn albalaghat alqadimat walnaqd alhadithi, tabeat 'uwlaa, alqahirata, dar albasayir.
- alrabiei, hamid, (1996), maqayis albalaghat bayn al'udaba' waleulama'i, tabeat 'uwlaa, alsueudiati, jamieat 'um alquraa maka.
- di bujrandi, (1998) alnasu walkhitab wal'iijra'a, tahqiq tamam hasan, altabeat al'uwlaa, alqahiratu, ealam alkutub.
- alsskaki, 'abu yaequba, (2000) miftah aleulumi, tahqiq eabd alhamid handawi, tabeat 'uwlaa, bayrut, dar alkutub aleilmiati.
- saedudi, 'aminatu, wafawziat sarir eabd allah, (2022), mukhalifat muqtadaa alzaahir waealaqatuha bialtakhfif wa'amn allibs, majalat jusur almaerifati, aleadad althaalithu, almujalad althaamini.
- alshahri, eabd alhadi bin zahir, (2004), astiratijiaat alkhatabi, altabeat al'uwlaa, libya, dar alkitabi.
- dayfi, shawqi, (2007) albalaghat tatawur watarikhu, tabeat tasieatin, alqahirati, dar almaearifi.
- aleakub, eisaa ealaa, (d. ti) alkafi fi eulum albalaghat almaeani albayan albadiei, tabeat 'uwlaa, bayrut, dar alkutub aleilmiati.
- aleamri, zafir, (2008) balaghat alquran alkarim dirasat fi 'asrar aleudul fi astiemal siagh alfieli, tabeat 'uwlaa, alqahirati, maktabat wahba.

- fraj, 'ahmadu, (2007), nazariat eilm alnasi ruyat manhajiat fi bina' alnasi alnathri, tabeat 'uwlaa, alqahirati, maktabat aladab.
- fyud, bisyuni, (2013), min balaghat alnuzum alquranii dirasat balaghiat tahliliat almaeani walbayan walbadie fi ayat aldhikr alhakimi, tabeat 'uwlaa, alqahirat, muasasat alrisalati.
- qasama, siza, (1995), alqari walnas, majalat ealam alfikri, (aleadad 3,4) (almujalad 23).
- alqazwini, jalal aldiyn, (1993) al'iidah fi eulum albalaghati, tahqiq duktur muhamad eabd almuneim khafaji, tabeat thalithatan, bayrut, dar aljil.
- mbidr, eaqil, (2012), 'usul almaeayir alnasiyat fi alturath alnaqdii walbalaghii eind alearabi, risalat majistir, jamieat alkufat aleiraqu.
- maseud, jibran, (2012), alraayidi, tabeat thalithatun, bayrut, dar aleulum lilmalayini, madat miqyasi.
- matluba, 'ahmadu, (2007), muejam almustalahat albalaghiat watatawuruha (eirbi-eirbiu), tabeat thalithatan, bayrut, maktabat lubnan.
- nahlatu, mahmud, (2002), afaq jadidat fi albahth allughawii almueasiri, tabeat 'uwlaa, al'iiskandiriatu, dar almaerifat aljadidati.
- alhashimi, 'ahmadu, (2007), jawahir albalaghat fi almaeani walbayan walbadie, dabt yusif alsamili, tabeat 'uwlaa, bayrut, maktabat sayda.

- nasif, mustafaa, (1995), allughat waltafsir waltawasulu, tabeat 'uwlaa, alkuayti, almajlis alwataniu lilthaqafat walfunun waladab.
- naeamiat, 'antuan, (2000), muejam almunjidi, altabeat al'uwlaa, bayrut, dar almashriqi.